قادة غيروا العالم

إعداد/ خالد دردير

طريف بن مالك.. فاتح جزيرة طريف

قلعة طريفة أول مدينة وصلها طريف بن مالك، مستطلعا قبل طارق بعام كامل بناها الناصر واستعملت لحماية الجند في طريقهم لاحتلال المغرب

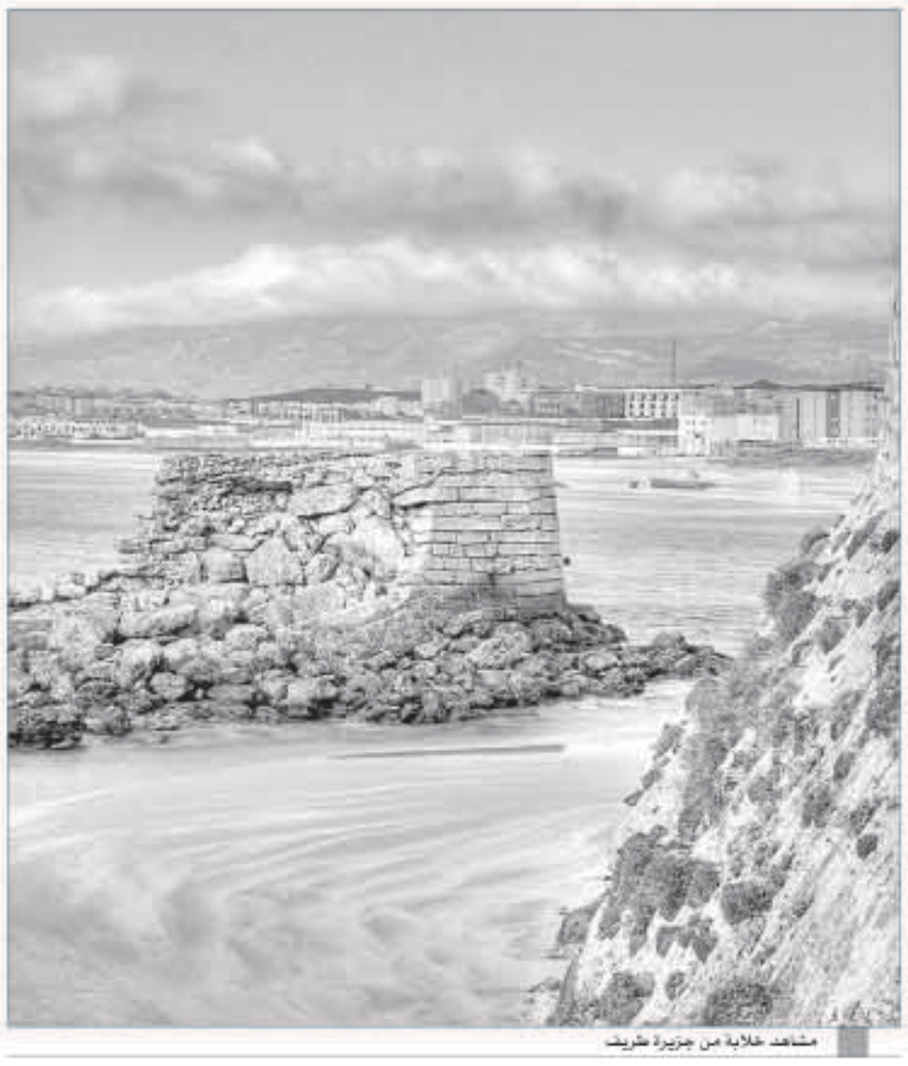

مشاهد خلابة من جزيرة طريف

نسبه وحياته

هو طريف بن مالك من البربر، يكنى: أبا زُرْعَة، وهو طريف البربري مولى موسى بن نصير، الذي تنسب إليه جزيرة طريف، وطريف ينتسب إلى قبيلة برغواطة البربرية من البرانس، ومن المعلوم أن البربر قسمان: البرانس، والبتر، وكانت قبيلة برغواطة تسكن الإقليم المواجه للبحر المحيط شمال وادي أم ربيع، حول منطقة مدينة الرباط الحالية.

وسنجد أن طريف بن مالك ليس من قبيلة برغواطة حسب، بل هو رئيسها، وكان له دور كبير في تلك القبيلة، من ناحيتي: العقيدة، والقتال، أي في توجيهها الفكري، وفي قيادتها في ميادين القتال.

وتذهب بعض المصادر، إلى أنه كان من أهل اليمن، فهو أبو زُرْعَة طريف بن مالك المَعَافري، الاسم طبق الكنية، والمعافر باليمن والأندلس ومصر، والأصل من اليمن لأنهم من سبأ، وهو طريف بن مالك النَخَعي، والنَخَعُ بن عامر من سبأ أيضاً، وسبأ من اليمن.

ومن الواضح، أن طريف بن مالك ليس عربيًا، فهو ليس من المعافر ولا من النخع، وهو بعد ذلك ليس من اليمن، بل هو بربري من المغرب، ظهر أثره في البربر على عهد موسى بن نصير، وظل أثره فيهم بعد عهد موسى بن نصير، ولم يبرح المغرب في العهدين، وظل مع البربر واحداً منهم حتى توفاه الله.

ويبدو أن والد طريف، وهو مالك، كان مسلما، بدليل اسمه العربي الإسلامي، مما يدل على أن طريفا ولد ونشر وترعرع في بيت إسلامي، ولعل تدينه لفت إليه الأنظار، بالإضافة إلى مزاياه وكفاياته الأخرى، وكان قربه من موسى بن نصير قد أتاح له الفرصة السانحة لتولي منصبا قياديا، فنجح في منصبه القيادي نجاحا ظاهرا. وقد كان من أقرب المقربين إلى موسى بن نصير من البربر: طارق بن زياد، وطريف بن مالك، فاستعان بهما في قيادة البربر، وبخاصة في مهمة فتح الأندلس.

وأخبار طريف في أيامه الأولى نادرة جدا، وقد برز لأول مرة في توليته قيادة على جماعة من البربر، لتحقيق استطلاع في الأندلس، وربما بقي طريف مجهولا لو لم يتسنم هذا المنصب القيادي، الذي ستسرد أخباره وشيكا.

صاحب أول سرية في الأندلس

كتب موسى بن نصير إلى امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، يخبره بالذي دعاه إليه يليان (حاكم سبتة) من امر الأندلس، وباستئذنه في اقتحامها. وكتب إليه الوليد: «أن خضها بالسرايا، حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال». وراجعه موسى: «انه ليس ببحر زُخار، وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه». فكتب إليه: «وإن كان، فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه».

ويبدو أن طريف بن مالك، برز من جملة من برز في عمليات موسى العسكرية. فلفت إليه الأنظار، ومنهم نظر موسى. وكان موسى بعد أن سيطر على إفريقية والمغرب سيطرة كاملة، يتطلع إلى فتح الأندلس، فقد كان حاضر إفريقية والمغرب ومستقبلهما بالنسبة لتوطيد أركان الفتوح فيهما، مهدداً من الروم أولا ومن القوط الغربيين في الأندلس ثانيا، وقد هاجم موسى قواعد الروم في البحر الأبيض المتوسط: صقلية وسردانية، وفتح مَيُورَقة ومَنُورَقة، لغرض حماية فتوح إفريقية والمغرب من الروم، لأن الهجوم أنجع وسائل للدفاع؛ وبقي على موسى فتح الأندلس، لوضع حد نهائي لتهديد القوط الغربيين -الذين يحكمون الأندلس- لحاضر ومستقبل فتوح المسلمين في إفريقية والمغرب.

سرية طريف بن مالك إلى الأندلس

فبعد موافقة الخلافة الأموية أرسل موسى بن نصير في شهر رمضان من سنة 91هـ (آب: أغسطس - أيلول: سبتمبر 710 م) سرية استطلاعية إلى جنوبي الأندلس، مؤلفة من خمسمائة مجاهد، منهم مئة فارس، والباقي من المشاة، بقيادة أبي زُرْعَة طريف بن مالك.

وعبر هذا الجيش الزُقاق، والزُقاق اسم يطلق أحيانا على المضيق بين الأندلس وشمالي إفريقية، من سبتة، بسفن يليان أو غيره، ونزل في جزيرة بالوما (Isla de las Plomas) في الجانب الإسباني، وعُرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد: جزيرة طريف (Tarifa).

ومن ذلك الموقع، الذي اتخذه طريف وسريته الاستطلاعية القتالية قاعدة أمامية متقدمة، قام طريف وسريته بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل الأندلسي الجنوبي بإرشاد يليان وصحبه، وأغار على الجزيرة الخضراء، فأصاب غنيمة كبيرة، ورجع سالما في رمضان أيضا سنة إحدى وتسعين الهجرية، فلما رأى الناس ذلك تسرّعوا إلى الغزو، وتشجعوا على فتح الأندلس.

وخفت قوة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعون المسلمين، كما قامت تلك القوة بحراسة موقع إنزال المسلمين في جنوبي الأندلس، وكانت نتيجة الغارة الاستطلاعية التي قادها طريف، أن للمسلمين غنموا مغانم كثيرة وسبيا عديدا، وقوبلوا بالإكرام والترحيب، وشهدوا كثيرا من دلائل خصب الجزيرة وغناها، وعادوا في أمن وسلام. وقص قائدهم طريف على موسى نتائج رحلته، فاستبشر بالفتح، وجد في أهبة الفتح، كما تشجع موسى وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح المستدام.

لقد كانت مهمة سرية طريف مهمة استطلاعية، هدفها الحصول على المعلومات عن طبيعة الأرض والسكان وأساليب قتالهم ودرجة ضراوتهم، وتفاصيل قيادتهم، ومبلغ الثقة المتبادلة بين القيادة والسكان، ومبلغ حرص السكان والقيادة على الدفاع عن أرضهم، وكان لقيام طريف بعدة غارات في المنطقة دون أن يلاقي أية مقاومة، نتيجة مهمة واحدة، هي: عدم حرص القيادة والسكان على الدفاع عن أرضهم كما ينبغي، وهي نتيجة على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لخطط الفتح، وبالنسبة للمسلمين الفاتحين.

وقد تعدّت مهمة طريف كذلك إلى استطلاع حقيقة نوايا يليان، ومن معه تجاه السلطة القائمة في الأندلس، والمتمثلة بالملك لذريق ونظامه، وحقيقة نواياه ومن معه تجاه المسلمين الفاتحين. وقد أثبتت سرية طريف الاستطلاعية، أن يليان ورجاله يحقدون على لذريق، ولا يتأخرون عن التشيث بكل وسيلة ممكنة للقضاء عليه، وأن غرضهم هو التعاون والمعاونة وليس خدعة بل حقيقة لا غبار عليها. المسلمين.

أرسله موسى بن نصير في سرية استطلاعية مؤلفة من 500 مجاهد

أدّى طريف ورجاله واجبهم الاستطلاعي المزدوج على أتم ما يرام وكان تمهيداً لوضع خطة فتح الأندلس موضع التنفيذ العمليّ في ميادين القتال

وقد أدّى طريف ورجاله واجبهم الاستطلاعي المزدوج على أتم ما يرام، وكان استطلاعه تمهيدا لوضع خطة فتح الأندلس موضع التنفيذ العمليّ في ميادين القتال.

ثورة ميسرة الخارجي

لم نَعُد نسمع عن طريف، بعد هذه السريّة الإستطلاعيّة الموفقة التي قادها مستطلعا أحوال الأندلس سكانا وأرضا للمسلمين، وبدأ عمليا تطبيق خطة فتح الأندلس، ومهّد لهذا الفتح تمهيدا موفقا.

ولكنه ظهر مرة أخرى من جديد، على مسرح الحوادث في المغرب، ولعب دوراً خطيراً في الثورة التي قادها ميسرة البربري المدغري في المغرب الأقصى، وكانت أول حركة خارجية قام بها المغرب على المسلمين، وكان ذلك سنة سبع عشرة ومائة الهجرية (735 م).

وقد كان ميسرة يسعى إلى تحقيق المساواة في الأعطيات بين العرب والبربر في الجيش الإفريقي، وبعد أن خاب رجاء البربر في إنصاف الخليفة هشام بن عبد الملك، خرجوا من المعارضة الصامتة إلى الثورة المسلحة، وبدأت الثورة في طنجة في موطن مدغرة قبيلة ميسرة، حيث أعلن نفسه إماما وبايعه الناس، وسرعان ما انضمت إلى قبيلته جميع قبائل المنطقة من غمارة ومكناسة وبرغواطة، وكانت دعوة الخوارج منتشرة في قبيلة برغواطة بفضل طريف رئيسها، الذي اعتنق مذهب الخوارج في بداية القرن الثاني الهجري، وكان سبب انضمام طريف إلى الخوارج وثورتهم، هو انحراف بعض ولاة الدولة عن العدل ومبادئ الإسلام، فكان الولاة يُخَمّسون مَن لم يُجب للإسلام.

وقد كانت ثورة البربر عارمة، لم يتخلف عنها أحد مسلمهم وكافرهم، فما كان بإمكان طريف بن مالك أن يتخلف وحده عنها، وقد جرفته روح الجماعة. كما أن شعار الثورة في مقاومة الانحراف لا غبار عليه، فلا يرضى الإسلام أن يُخَمّس البربر المسلمون ولا يرضى المسلمون الصالحون من الفقهاء والمحدثين بهذا التخميس، كما أن التفرقة بين المسلمين على أساس الجنس لا يقرّه الإسلام كما هو معروف.

وكان طريف من جملة قواد ميسرة ومَن جاء بعده في ثورة الخوارج الصّفرية بالمغرب، فلما انتهت تلك الثورة بالإخفاق، حل طريف بمبلاد تامسنا (منطقة مدينة الرباط الحالية، وما حولها)، فقدّمه البربر على أنفسهم، فوَلّي أمرهم، وكان على دين الإسلام، وبقي أميرا على البربر في تلك البلاد -ليس على برغواطة حسب- بل على جميع بربر تلك البلاد، حتى توفي سنة 124هـ (741 م).

وترك طريف أربعة أولاد، فوَلي الأمر بعده صالح بن طريف سنة 124هـ (741 م)، تنبّأ فيهم، وشرع لهم ديانة، وسمّى نفسه: صالح المؤمنين، وعهد إلى ابنه إلياس بديانته، وأمره ألا يُظهر ذلك إلا إذا قوي أمره، وحينئذ يدعو إلى مذهبه، ويقتل مَن خالفه من قومه. وقد اقتصر انحراف عَقِب طريف على برغواطة، فنسب هذا الانحراف إلى قبائل الإقليم، فعرف بـ: زندقة برغواطة.

فاتهام طريف بانحرافه عن الإسلام، فقد كذبه مَن اتهمه بهذه التهمة في كتابه الذي اتهمه فيه، كما لم تأخذ بهذا الاتهام المصادر المعتمدة الأخرى، فقد نسبت زندقة برغواطة إلى صالح ابن طريف لا إلى طريف، فالتهمة الموجهة إلى طريف ولدت ميّتة، لم يصدقها أحد، ولم يأخذ بها أحد.

طريف بن مالك القائد

لقد تقدّم طريف على غيره من البربر المسلمين، بمزاياه القيادية التي لفتت إليه الأنظار، فولاه موسى منصبا قياديا، في ظروف غير اعتيادية، لينهض بتحقيق هدف مصيري صعب، في أيام يصعب فيها على غير العرب المسلمين الوصول إلى المناصب القيادية، لأنها كانت للعرب المسلمين وحدهم دون سواهم، ولكن طريفا وطارق بن زياد وحدهما من البربر تواليا منصبين قياديين في فتوح الأندلس، وكانا قبل ذلك من أقرب المقربين إلى موسى بن نصير ومن أبرز المقربين إليه من البربر المسلمين.

ومفتاح مزايا شخصية طريف القيادية، تتركز في إيمانه العميق، فهو مجاهد صادق، وهو شجاع مقدام، يعتبر الشهادة أمنية من أعز أمانيه، وهو متزن غير متهوّر، لا يخطو خطوة بدون حساب، وهو كذلك ذكي المعي الذكاء.

لهذا وغيره كان طريف على حسن ظن موسى بن نصير به، وعند حسن ظن طارق بن زياد أيضا، وعند حسن ظن المسلمين الفاتحين في الأندلس، وكان توليه منصبا قياديا مكسبا لا شك فيه للقيادة العامة وللفتح والفاتحين.

وعلى الرغم من أن المصادر المعتمدة، بخلت في الحديث عنه إنسانا بخلا لا يناسب ما قدمه للمسلمين من جهود مشمرة، فأخباره في تلك المصادر قليلة جدا، إلا أنه يبدو بجلاء أنه كان رجلا من رجال المسلمين الأبرار، الذين سخروا مواهبهم لخدمة مصلحة المسلمين العليا، ولم يسخروها لخدمة مصلحتهم الشخصية، وحسبه بذلك عملا من الأعمال الباقية التي لا تُنسى.

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، جزاء ما قدّم للإسلام والمسلمين من جهود مادية ومعنوية في الفتح وفي غير الفتح قائدا وإنسانا.

لعب دوراً خطيراً في الثورة التي قادها مَيْسَرة البربري المَدْغَري في المغرب الأقصى وكانت أول حركة خارجية قام بها المغرب على المسلمين

كان استطلاعه تمهيدا لوضع خطة فتح الأندلس موضع التنفيذ العملي في ميادين القتال